

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوعات مختلفة، تتصل بالتراث والشعر واللغة، أما ما يتصل بالتراث فأربعة موضوعات، أولها يصور كيف أن التراث تعمه وحدة دينية وعلمية، وهي وحدة هيأ لها القرآن الكريم مما أعد - على مر العصور - لنشاط مطرد في التفسير والحديث النبوي والفقه، نهض به أئمة أفذاذ، كما نهض نظراء لهم بالتراث اللغوي والنحوي والبلاغي وعلوم الأوائل والتاريخ، صادرين في كل ذلك عن وحدة فكرية وعلمية دقيقة. والموضوع الثاني يصور ما أتاح القرآن الكريم للتراث الأدبي العربي من خصائص جمالية ظلت إلى اليوم قوام وحدته في الشعر ومقوماته الأساسية وما جد فيه من موشحات وغير موشحات وفي النثر وما جد فيه من مذاهب فنية ومقامات وغير مقامات. والموضوع الثالث هو إحياء التراث العربي وتجديده في عصر الماليك بمصر والشام، وقد سماه المؤرخون العصر المغولي، ووصموه بأنه كان عصر انحطاط في جميع شئون الحياة العقلية والأدبية، متناسين أننا سحقتنا فيه جموع الصليبيين والمغول سحقاً ذريعاً. ويوضح هذا الموضوع كيف حافظ عصر الماليك على التراث العربي بإحياء نصوصه على نهج علمي دقيق وبوضع دوائر معارف فيه تسجله وتصونه، وكيف نماه وجدد فيه، سواء في علوم اللغة والنحو أو في الدراسات الدينية من تفسير وفقه أو في الكتابات التاريخية والاجتماعية، أو في الكتابات الأدبية وما يتصل بها من الآداب الشعبية. والموضوع الرابع هو التراث بين أنصاره وخصومه، وهو يصور دعاوى الأخيرين وما يرمونه به من بُعد عن الروح العلمية وما فيه من تكرار وجود كما يزعمون، مع التهليل

للشعر الحر، ومع الدعوة إلى هجر الفصحى واصطناع العامية. وينقض الموضوع هذه الدعاوى نقضاً، مبيناً أن التراث يحض على طلب العلم حتى ليجعله فريضة، ويتحدث عن شيوع الشروح والحواشى والتقارير فيه، ويقول إنها دوائر معارف واسعة. ويصور ما في دعوة الشعر الحر من إسراف في التجديد، كما يصور ما في الدعوة إلى العامية من هدم للعروبة وكيد للإسلام. ويتحدث عن مرونة الفصحى واتساع طاقاتها إلى أقصى حدّ مما أتاح لها أن تكون لغة خالدة على مرّ الزمان.

ويتصل بالشعر في الكتاب سبعة موضوعات، أولها أربع مقالات بعنوان «حول الشعر» كتبها في بواكير حياتي وأنا طالب بالسنة الثالثة في كلية الآداب، وكنت قد نشرتها بمجلة الرسالة، ورأيت أن أعيد نشرها للمقارنة بين ما كتبه قديماً في النقد الأدبي وما كتبه حديثاً، وكيف أن الأسلوب واحد لم يتغير مع الزمن. وكان أول مقال نشرته في المجلة المذكورة عن قضية الوضوح والغموض في الشعر، وتلوته بمقال عن ماهية الشعر وعناصره، وبمقال عن رسالة الشاعر وأنها ليست التثقيف ولا بثّ الفلسفة والأخلاق وإنما التغنى بالجمال والعواطف غناءً موسيقياً، وأتبع ذلك بمقال عن صلة الشعر بالفنون وخاصة صلته بفني الرسم والموسيقى. والموضوع الثاني: «القديم الجديد في الشعر» وكيف أن الشعر لا يوصف بقديم ولاهم لتعبيره عن الطبيعة البشرية وحقائق النفس الإنسانية وهي ثابتة خالدة، وهو ما جعل الشعر خالداً، لأنها جوهره كما تشهد بذلك نماذجه الكبرى عند ابن سينا وابن الشبل البغدادي وأبي العلاء المعري بما صوروا من تأملات في الإنسان والكون والوجود، وبالمثل أشعار الصوفية وما تحمل من ولّه ملتاح، وأيضاً أشعار المديح لما تحمل في مقدماتها من مشاعر الحب الإنساني من الحكم والخبرات الثابتة، وما تصوّر من أمجاد أسلافنا الحربية التي ستظل تغذّي الأجيال العربية غذاء بطولياً رائعاً. والموضوع الثالث في الشعر: «العروبة في شعر أبي تمام» وهو يصور أحاسيسه بمجد العرب الحربي منذ العصر الجاهلي وكيف تحول بهذا المجد في عصره إلى أناشيد حربية يتغنى فيها ببطولات العرب وقوادهم واستبسالمهم في قتال الأعداء حتى يُلْقُوا عن يدٍ وهم أذلاء صاغرون.

والموضوع الرابع «الإيقاع الموسيقي في شعر ابن زيدون» وهو يعرض تكامل هذا الإيقاع في الشعر العربي وكيف اصطفى البحترى لشعره ألحاناً موسيقية رائعة، ومنه تناول ابن زيدون القيثارة ولحن عليها أنغاماً بديعة، لعلها أبدع ألحان شعرية عرفتھا الأندلس. والموضوع الخامس: «سجل شعري تاريخي فريد» وهو يصور كيف أن الشعر العربي كان دائماً سجلاً تاريخياً لأحداث عصره وكيف أن شعر علي بن المقرب العيوني شاعر الأحساء والبحرين منذ أواخر القرن السادس حتى نهاية العقد الثالث من القرن السابع يحمل تاريخ دولة العيونيين في الأحساء والقطيف والبحرين وكل ما اتصل به من أحداث مما لا نجد له أثراً واضحاً في كتب التاريخ. والموضوع السادس: «حافظ وشوقي وزعامة مصر الأدبية» على شقيقتها العربيات وهو يعرض تلك الزعامة قديماً في النثر والشعر على يد القاضي الفاضل وابن سناء الملك حين أصبحت لمصر الزعامة الحربية على يد صلاح الدين، واستمرت الزعامتان جميعاً إلى أن انتكستا في الحقب العثمانية. وأعاد لمصر زعامتها - بقوة - في الشعر البارودي وتلميذاه: «حافظ وشوقي» وقد مضيا يثبتانها حتى أصبحت صرحاً باذخاً بما زرعا في قلوب الشعوب العربية من ضغينة وحقد على الاستعمار البغيض حتى تقلم أظفاره، وتردّه عن ديارها خاسئاً مدحوراً. وظلا ييثان الحماسة في صدور تلك الشعوب بأشعار وطنية وقومية عربية وإسلامية نبوية وفرعونية مصرية حتى يثور الغرب ويقضوا على المستعمرين قضاء مبرماً، وحتى يستعيدوا دورهم التاريخي العريق. والموضوع السابع: «صلاح عبد الصبور والشعر الحر الجديد» وهو يتحدث عن المراحل الأولى لتجربة الشعر الحر وما نشب حولها من معركة عنيفة مع بيان حاجة هذا النمط الشعري الجديد إلى توطيد صلته بالتراث الشعري وإيقاعه الموسيقي وصياغته الناصعة، ثم يتحدث الموضوع عن مضمون الشعر عند «صلاح» وما يداخله من حيرة وقلق ونشدان للحرية والعدالة، وبين تمثل صلاح لإيقاع الشعر الموروث وأن هذا التمثل يتضح عنده في كثير من منظوماته. ويؤكد الموضوع أنه ينبغي في استخدام الكلمات اليومية في الشعر أن ترتفع عن مستواها اليومي إلى مستوى الأداء الشعري المزوج بروعة الخيال.

ويشتمل البحث في اللغة على ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول: في اللغة «الفصحى المعاصرة» وهو يعرض تطورها في العصر العباسي بما حملت من ألفاظ حضارية ومصطلحات علمية، كما يعرض تطورها المائل في العصر الحديث، مع بيان دور الصحافة في سهولة أساليبها وما وسعته من فنون نثرية جديدة كفنّي المقالة والقصة.

والموضوع الثاني: في اللغة «لغة المسرح بين العامية والفصحى» وهو يتحدث في إجمال عن تاريخ المسرح المصرى وما مُثِّل عليه من مسرحيات عامية وفصيحة، ويفصّل القول في مسرحية «مصر الجديد ومصر القديمة» لفرح أنطون وقد جمع فيها بين الفصحى والعامية فجعل الفصحى لشخص الطبقة العليا والعامية لشخص الطبقة الدنيا، واقترح لغة ثالثة وسطى للسيدات سماها «فصحى مخففة»، وبذلك تحمل المسرحية عنده عدة صور من الأداء اللغوى. وحاول توفيق الحكيم استخدام لغة وسطى بين الفصحى والعامية في مسرحيته: «الصفقة» و«الورطة». ومع طرافة المحاولة يلاحظ أنها استبقت غير قليل من ألفاظ العامة ونطقهم غير السوى.

والموضوع الثالث: «اللغة بين الكلمتين: المسموعة والمقروءة» وهو يصور كيف أن لغة الأدب في الجاهلية بفرعيه من الشعر والنثر كانت لغة مسموعة وما خلفه ذلك فيها من الخصائص النغمية، وكيف أن الأدب حين تحول نهائياً في العصر العباسي من أدب اللغة المسموعة إلى أدب اللغة المقروءة ظل - وخاصة في الشعر - يحتفظ بالخصائص النغمية للغة المسموعة، حتى إذا كان العصر الحديث واتسعت مخاطبة الأدب للجماهير القارئة عن طريق الطباعة والصحف نشأت فيه لغة مبسطة حتى يشيع في الناس وتقرأه الطبقة الشعبية دون أى مشقة، وظهرت الإذاعة، فعاد أدباً مسموعاً، يسمعه، في أرجاء العالم، الأمي وغير الأمي، مما دفع أصحاب الأدب الذى يذاع إلى أن تكون لغتهم أكثر تبسيطاً من لغة الأدب الصحفى، ولا ريب أن ذلك يؤذن بنشوء أدب إذاعي أكثر قرباً إلى لغة

الحياة اليومية المسموعة المتداولة، والأمل أن ينهض بذلك الإذاعيون أنفسهم فيكون من بينهم أدباء موهوبون يبدعون هذا الأدب الإذاعي المنشود. والله وليّ الهدى والتوفيق.

شوقى ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٨٧م